

(١)

التعليم ضرورة شرعية ووطنية

الحمد لله رب العالمين، القائل في كتابه الكريم: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، **وبعد :**

فقد اهتم الإسلام بالعلم اهتماماً بالغاً ، فجعله حياةً للقلوب ، ونوراً للعقول ، به يرتفع شأن الأمم والمجتمعات ، وبه تستقيم الحياة وتبنى الحضارات ، وبه يقضى على التخلف والجهل ، كيف لا ؟ وهو ميراث الأنبياء ، كما قال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطَّةٍ وَافٍ).

ولقد ظهرت عناية الإسلام بالعلم والترغيب فيه مع أول كلمات استقبلتها أذن النبي (صلى الله عليه وسلم) من وحي السماء ، وذلك في قوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}، فأول أمر سماوي نزل به الوحي هو الأمر بالقراءة التي هي أول أبواب العلم ، ثم تأتي الإشارة بعد ذلك إلى القلم الذي هو وسيلة تدوين العلم ونقله ، وفي هذا تنبيه للناس كافة على بيان فضل العلم ، والترغيب في طلبه والحث عليه .

ولبيان منزلة العلم ومكانته وأهميته قدّمه ربنا (سبحانه وتعالى) على العمل في قوله (عز وجل) : {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} ، وأكد النبي (صلى الله عليه وسلم) على ذلك بقوله : (وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ) .

وإن من شرف العلم وفضله أن الله (عز وجل) امتن به على أنبيائه ورسله (عليهم السلام) ، فقال عن يوسف (عليه السلام) : {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} ، وقال عن موسى (عليه السلام) : {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} ، وقال لعيسى (عليه السلام) : {يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ...} ، وفي معرض الامتنان على داود وسليمان (عليهما السلام) قال تعالى : {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} ، وقال عن نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) : {وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} ، ويكفي العلم شرفاً وفخراً أن الله (سبحانه وتعالى) لم يطلب من نبيه (صلى الله عليه وسلم) الاستزادة من شيء إلا من العلم ، فقال تعالى : {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} .

فللعلم مقام عظيم ، ولأهل العلم مكانتهم العالية ، فلولا العلم والعلماء لضلَّ الناس وفسدوا ، فالعلم نورٌ يبصر به صاحبه حقائق الأمور ، والعلماء للناس كالنجوم في السماء يهتدى بهم ، قال تعالى : {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} ، فكان الله (عز وجل) قسم الناس في هذه الآية إلى قسمين : عالم ، وأعمى ، فجعل العلم في مقابل العمى ؛ فالبصر هنا بصر العلم والمعرفة ، ليس بصر الرؤية ، قال تعالى : {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} .

وقد بين الشرع الحنيف بنصوصه الحكيمة فضل العلم وحثَّ على طلبه وتحصيله ، ففي القرآن الكريم قال تعالى : {... فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ

وَيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}، وقال سبحانه: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}، وقال سبحانه: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}.

كما حثَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) على طلب العلم ورغب فيه ، حيث قال : (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لِيَسْتَعْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ) ، بل جعل النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) طلبه فريضة على كل مسلم ومسلمة ، لما يمثله العلم من قيمة لصاحبه والمجتمع ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ) ، فبالعلم يعرف الناس ما يجب عليهم نحو خالقهم ، وبه يُعرف الحلال من الحرام ، وبه يصلح عملُ العبد و يبلغُ أعلى الدرجات ، قال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّمَا الدُّنْيَا لِرَبْعَةِ نَفَرٍ : عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحْمَتَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ) ، قَالَ : (فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا؟ فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ كَانَ لِي مَالٌ عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ ، وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحْمَتَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ ، وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا، وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ : لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، هِيَ نِيَّتُهُ، فَوَزَّرَهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ) .

على أننا نوكد أن العلم الذي حثَّ الإسلام على تحصيله وطلبه هو كل علم نافع يأخذ بأيدينا إلى الفهم الصحيح لديننا والرقي بأخلاقنا ، وإلى التقدم في جميع مجالات الحياة ، ولا يقتصر ذلك على طلب العلم الشرعي فحسب ، بل كل علم يسعى

(٤)

الإنسان لتحصيله يكون فيه نفع للمجتمع ، ونصرة للدين ، ورفعة للوطن ، فهو علم محمود ، وطريق من طرق الجنة ، فالنفع هو مقصود الإسلام في العلم ؛ لذلك وصف النبي (صلى الله عليه وسلم) العلم الذي لا ينقطع أجره بعد موت صاحبه بالعلم النافع ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ ، إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ) ، بل كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يستعيد بالله من العلم الذي لا ينفذ ولا يبنى ولا يعمر ولا يهذب الأخلاق والسلوك ، فقال : (سَلُوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا ، وَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ) ، وكان من دعائه (صلى الله عليه وسلم) : (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَتَّعَبُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا) .

وكما عني الإسلام بالعلوم الشرعية فقد عني كذلك بالعلوم الكونية ، فكلاهما يهدي ويرشد ، وهما جناحان تقوم بهما الحضارات وتبقى ، فهذا جانب روحي وذاك جانب مادي ، وقد جعل القرآن الكريم النظرة المتأمله في الكون والآفاق سبباً لاستبانة الحق ، وطريقاً موصلة إلى معرفة الله (عز وجل) ، فقال سبحانه : {سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} ، وقال سبحانه : {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَايِبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ} ، ففي هذه الآيات بيان لشرف العلوم الكونية ، وأن العالمين بها هم أخشى الناس لله (عز وجل) .

ولكي يحقق العلم ثمرته وغايته فلا بد من النهوض به ، وتطويره بما يتناسب مع التقدم المذهل الذي يشهده العالم الآن في جميع المجالات ، حتى ننمي في الطالب

(٥)

ملكة الإبداع والابتكار بما يتناسب مع احتياجات الواقع ، والقدرة على التحليل والاستنباط القائم على الفهم ، وهذه مسؤولية مشتركة بين جميع أفراد المجتمع ، فليس الأمر مقتصرًا على الأسرة والمؤسسات التعليمية فحسب ، بل هو مسؤولية مجتمعية ، وضرورة شرعية ووطنية ، وجب على الجميع أن يؤدي واجبه تجاهها.

إنها رسالة نوجهها إلى كل من يسعى لرفعة هذا الوطن ، وتحقيق ازدهاره ونهضته ، إذا أردنا أن نعيد للأمة مجدها ومكانتها ، فلنعط العلم والتعليم حقه ، ونعمل على توفير المناخ المناسب والمتطلبات الضرورية للنهوض به ، فالتحديات كبيرة ، ولن نتمكن من مواجهتها إلا بالعلم الحقيقي النافع ، والعمل الجاد المخلص ، والله درُّ القائل: بالعلم والمال يبني الناس ملكهم *** لم يبن ملك على جهل وإقلال.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلامًا على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام:

إن أهم محور في العملية التعليمية هو الطالب ، فهو المحور الرئيس في منظومة التعليم ؛ لذا وجب علينا أن نوليه عناية خاصة ، واهتمامًا معنويًا ونفسيًا لا يقل عن اهتمامنا به من الناحية العلمية ، ولقد أوصانا النبي (صلى الله عليه وسلم) بطالب العلم خيرًا، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): (سَيَأْتِيكُمْ أَقْوَامٌ يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمْ فَقُولُوا لَهُمْ : مَرْحَبًا مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وَأَقْنُوهُمْ) ، أي : علموهم .

(٦)

ورسالتنا إلى أبنائنا طلاب العلم : إننا نوصي بكم خيراً ، ونشد على أيديكم ، ونستنفر فيكم روح الجد والاجتهاد ، فأنتم سواعد الأمة ، ومن ستحملون الراية غداً ، فكونوا على قدر المسؤولية ، ولا يستصغرن أحدكم دوره في المجتمع ، فعظماء الأمة وعلماءها كانوا في بداية أمرهم طلاباً للعلم أمثالكم ، فهذا عبد الله بن عباس (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) ، يخبر عن صبره في طلب العلم فيقول: (... فَإِنْ كَانَ لِيُبْلَغُنِي الْحَدِيثُ عَنْ الرَّجُلِ فَآتِي بَابَهُ وَهُوَ قَائِلٌ فَاتَّوَسَّدُ رِدَائِي عَلَى بَابِهِ تَسْفِي الرِّيحَ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ، فَيَخْرُجُ فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) مَا جَاءَ بِكَ؟ أَلَا أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ فَآتَيْكَ؟ فَأَقُولُ: أَنَا أَحَقُّ أَنْ آتِيكَ ، فَاسْأَلُهُ عَنِ الْحَدِيثِ ...).

كما أن على طالب العلم أن يتحلى بمكارم الأخلاق مع معلمه ومع الناس أجمعين ، ولنا فيما فعله سيدنا موسى (عليه السلام) مع عبده من عباد الله جاء يتعلم منه أسوة وقدوة ، قال تعالى: { قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا } ، وقال سيدنا عمر (رضي الله عنه) : " تأدبوا ثم تعلموا " وصدق الشاعر حين قال :

لَا تَحْسَبَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ *** مَا لَمْ يُتَوَجَّ رَبُّهُ بِخَلْقٍ .

وعلينا أن ندرك ماهية التعليم الذي نبحت عنه ، فليس أي تعليم كان ، إنما هو العلم الجاد الذي تبنى عليه الحضارات وتتقدم به الأمم .

كما أن هناك أمراً يجب التنبه له وهو أهمية الانتظام في اليوم الدراسي فالانضباط المدرسي يعني إلى حد كبير انضباط سلوكي ، والقدرة على التكيف مع ما يكلف به الإنسان من عمل بعد ذلك.

(٧)

وإننا نؤكد أنه ينبغي على الأسرة والمعلم والمؤسسات التعليمية أن يقوموا بالتوجيه والنصح والإرشاد لأبنائنا ، وأن ينموا بداخلهم الشعور بالمسؤولية ، وحب الوطن ، كما ينبغي أن نرسخ فيهم الجانب القيمي ، والأخلاقي ، والإنساني ، والإيمان بالتنوع ، وإدراك متطلبات فقه العيش المشترك ، وقاية لهم من الأفكار الهدامة والدعوات المضللة التي تستولي على عقول بعض الطلاب وتعمل على تحويلهم إلى معاول هدم وقتل وتدمير وتخريب ، بدل أن يكونوا أدوات بناء وإعمار .

ولأن التعليم ضرورة دينية ووطنية ، فلا بد فيه من تعاون الجميع ، وأن يكون للمجتمع كله ورجاله الوطنيين المخلصين دور هام في ذلك ، بالإسهام في بناء المدارس وصيانتها ، ومساعدة الطلاب الفقراء مادياً واجتماعياً وعلمياً ، وخاصة في المناطق الأكثر فقراً والأشد احتياجاً ، فالمجتمع الواعي هو الذي يسير بأجهزته ومؤسساته المختلفة وعلمائه ومثقفيه في اتجاه صناعة النهضة العلمية ؛ ليخرج أجيالاً تجمع العلوم والمعارف بطرق صحيحة ، تسهم في صناعة مجد الأمة ورفيها .

إنها رسالة نوجهها لكل من يسعى لتحقيق الخير لوطنه ولأمته : احرصوا على نهضة التعليم وجودته ، فبذلك ينهض المجتمع ويرقى إلى مصاف الدول المتقدمة .
فَاللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا ، وَلِسَانًا صَادِقًا ، وَرِزْقًا طَيِّبًا ، وَعَمَلًا مُتَقَبَلًا .